(١٣)
الصُّلْحُ الفَتْحُ..

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح: ١-٣).

يخبر ربنا ـ تعالى جَدُّه ـ في هذه الآيات عن صلح الحديبية، ويسميه فتحاً مبيناً لأنه كان بعد أن ظهر رسول الله ﷺ، وأصحابه على المشركين حتى سألوه الصلح، بعد أن كانوا يأبون ذلك ويستكبرون عنه. وكان هذا الصلح هو السبب في فتح مكة بعد قليل ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

ولذلك روى البخاري عن أنسٍ في هذه الآية «الفتح صلح الحديبية»[١]. وروى عن البراء بن عازب أن الصحابة كانوا يعدون الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية[٢].

---

(١) بخاري عن أنس. حديث رقم ٤١٧٢ و٤٨٣٤.

(٢) بخاري. حديث رقم ٤١٥٠.

ومن أجمل ما قيل في ذلك قول الزهري: «لم يكن في الإسلام فتح قبل الحديبية هو أعظم منه ... فلما أمن الناس كلهم ، كلم بعضهم بعضاً ... ولم يُكَلِّمْ أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا بادر بالدخول فيه . فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر». قال ابن هشام : «ويدل على ذلك أنه ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة [أو ألف وخمسمائة] ثم خرج بعد سنتين إلى الفتح في عشرة آلاف»[1].

فذل المشركون من حيث أرادوا العزة ، وقُهروا من حيث أرادوا الغلبة !

فكيف عُقِد هذا الصلح الذي سماه القرآن الكريم فتحاً مبيناً ؟

عاد سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ ، في مهمة محددة هي أن يصالح المشركون المسلمين على أن يرجع المسلمون عن مكة عامهم ذاك ، ويعودوا في العام الذي بعده فيعتمروا ويقيموا بمكة ثلاثة أيام ثم ينصرفوا من حيث أتوا . ولم تزل قريش تكرر لسهيل قولها القديم : «والله لا تتحدث العرب أن محمداً دخل علينا عَنْوة»!

---

(١) فتح الباري ، جـ٧ ص٤٤١ .

فأتى سهيل رسول الله ﷺ ، فجلس على ركبتيه مواجهاً رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأطال الكلام ، وارتفعت أصواتهما وانخفضت ، حتى قال عباد بن بشر ـ رضي الله عنه ـ لسهيل : « اخفض صوتك عند رسول الله » ، وجرى القول بين سهيل وبين رسول الله حتى اتفقا على أن تكون هدنة مدتها عشر سنين يأمن فيها الناس بعضهم بعضاً ؛ وأن يرجع رسول الله ﷺ هذا العام ثم يعود العام المقبل ، فتخلي قريش بينه وبين مكة ثلاثة أيام ؛ وألا يدخل مكة إلا بالسيوف في قُربها دون غيرها من السلاح ؛ وأنه من أتى محمداً بغير إذن وليه ـ وإن كان على دين محمد ـ رده محمد إلى وليه ؛ ومن أتى قريشاً ممن كان قد اتبع محمداً فإنها لا ترده إلى محمد ؛ وأن من أراد من العرب أن يدخل في عقد محمد وعهده (أي يحالفه) دخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل؛ فتواثبت خزاعة وقالوا : « نحن في عقد محمد وعهده » ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : « نحن في عقد قريش وعهدهم » !

فلما لم يبق إلا كتابة هذا الصلح ـ والمسلمون كارهون ـ وثب عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « يا رسول الله ألست نبيَّ الله حقاً؟ » قال : « بلى » . قال عمر : « ألسنا

على الحق وهم على الباطل؟» قال : «بلى» . قال عمر : «أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟» قال : «بلى» . قال عمر : «فعلام نعطي الدنيّة في ديننا؟ ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟» فقال رسول الله ﷺ ،«إني عبد الله ورسوله ، ولست أعصيه ، ولن يضيعني وهو ناصري». أي إن الأمر فيما جرى الاتفاق عليه لم يكن من عند رسول الله ﷺ ، وإنما كان وحياً يؤمر به النبي فينفذه . ولذلك لم يشاور أصحابه في هذا الشأن كله منذ خلأت القصواء ـ أو هكذا قالوا ـ إلى أن جرى الاتفاق بينه وبين سهيل بن عمرو . هذا وهو ـ ﷺ ـ الذي لم يكن أحد أكثر مشورة منه لأصحابه . فتبين من تركه المشاورة هنا أننا أمام وحي يوحى لا أمام رأي بشري تطلب له المشورة . ولم يقنع ذلك عمر بن الخطاب ، فعاد يقول للرسول ﷺ ، «أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف حقاً ؟ » قال : «بلى» ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قال : «لا» ، قال : «فإنك آتيه ومطوِّف به».

فذهب عمر إلى أبي بكر فقال له مثل مقالته لرسول الله ﷺ، وهو متغيظ لا يصبر. فكان جواب أبي بكر كجواب النبي ﷺ سواء بسواء[1]. قال عمر عن نفسه : «والله ما شككت قط منذ

---

(١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، سبق تخريجه .

أسلمت إلا يومئذ» ، وجعل يرد على رسول الله الكلام ، فقال له أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه ، ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ، يقول تعوَّذ بالله من الشيطان واتهم رأيك ؛ قال عمر : «فجعلت أتعوذ من الشيطان حياءً فما أصابني شيء قط مثل ذلك اليوم».

ثم كان عمر إذا حكى هذه الواقعة يقول : «اتهموا الرأي على الدين (أي لا تقولوا برأيكم في دينكم) ، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ ، برأيي ، وما أَلَوْتُ الحق» (أي لم أكن مقصِّراً في طلبه) ، قال : فرضي رسول الله ولم أرض حتى قال يا عمر : «تراني رضيت وتأبى» قال عمر: «فما زلت أتَصَدَّقُ وأصوم وأصلي وأعتق ، من الذي صنعت يومئذٍ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رَجَوْتُ أن يكون خيراً» (أي حتى غلب على ظني أنني كفَّرت عن ذاك الصنيع) ! [1]

رحم الله عمر. لقد كان في الحق جريئاً ، وفي الرواية عن نفسه ، فيما أصاب وأخطأ ، ناصحاً أميناً ، فرضي الله عنه وأرضاه كما نصح لله ورسوله ودينه وأمته .

* * *

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، السابق ، ص ٨٧ .